

في وقع الموت

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

ضمي مجلس قال أحد من فيه -- وقد ذكر بعضنا وفاة الملك جورج الخامس ، وقول الأطباء إنهم لم يشهدوا أعراض مرض معين ، وأن قواه كانت تهبط شيئاً فشيئاً -- : « إن من الصعب على الانسان أن يواجه الموت وهو محتفظ بمقله » ، وقال آخر إن الذي يخفف عنه في هذه الساعة أنه يستسلم للموت وبقضاء الله فيه ، فسألته : « هل معنى هذا أنه يقبل على الموت راضياً ويتلقاه منتبهاً ؟

فكان جوابه : « نعم يستسلم فيفقد الموت لذمه ورهيته » ولست طبيياً ولا شبيهه ، ولكني لا أرى هذا ولا أستطيع أن أقتنع به ؛ وعندى أن الانسان لا يزال إلى آخر عمره يثور على الموت ويجهاد أن يدنمه عنه ويقي نفسه منه ؛ ولكن جسمه يفقد الحيوية فتذهب معها الإرادة -- لا إرادة الحياة ، فانها لا تفارقه أبداً ، بل إرادة المقاومة والكفاح بيد استنزاف القوة ، ويظل المرء كارهاً للموت مشتهياً للحياة متعلقاً بها ، ولكنه يعرف من نفسه أنه لم يعد قادراً على المجاهدة ، ويخطئه العون اللازم من الجسم فيكون كالذي فقد في المعركة سلاحه ، أو فرغت ذخيرته والأعداء مطبقون عليه ، فيوطن نفسه على الموت بأساً من النجاة

والمرء إنما يقاوم الموت بجسمه ، وقد يستطيع بقوة الإرادة أن يطيل أمد المقاومة ؛ ولكن استمرار المقاومة ممناه أن جسمه لا يزال محتفظاً ببقية من القوة مذخورة -- بالغة ما بلغت من الضآلة -- وبهذه البقية يستطيع أن يجعل لإرادته أثرًا ولقاومته لمدوان الموت مظهرًا ، فإذا زالت هذه البقية ونضب العيون ، لم يبق للإرادة عمل ، لأن الأداة التي تعمل بها الإرادة تكون قد فثيت وذهبت

ولا فرق هناك بين من يكافح الموت -- في الأحوال العادية الطبيعية -- وبين من يقاوم مع جيش . فكما أن الجندي يثبت ويصمد ويتسنى له أن يكر ويفر ، ويهاجم ويدافع ما بقي معه سلاحه وعدته ، حتى إذا فقد ذلك لم يبق له عمل ، كذلك يكون

المرء حيال الموت الذي يدلف إليه ويدنو منه على الأيام ليثبت عليه آخر الأمر . وكل ما هنالك من الفرق أن الموت كامن فينا ، وأن أدائه الضعف الذي يصيبنا ، والمهرم الذي يدركنا ، والمعجز الذي يستولى علينا في النهاية ، فهو ليس عدواً يهجم علينا ، بل حالة نصير إليها حينما تنفذ الحيوية لسبب من الأسباب

وقد راقبت الموت أكثر من مرة ، وشهدت كثيرين وهم في سياقه ، ثم ماتوا بين يدي ، وكان الموت في هذه الحالات كلها على أثر نضوب الحيوية ونفاذ القدرة على المقاومة . وكانت إحدى الميتات بسبب النزف ، فظل العقل حاضرًا لا يفتيب ولا تنهم نجاؤه ، ولا يتعكر صفوه ؛ وكان الاحساس بدنو الأجل قوياً ، ولا شك أن الرغبة في الحياة كانت عظيمة ، والجزع من الفناء كان شديداً ، ولكن الجسم لم تكن له قوة تستخدمها الإرادة ، فخرج النفس الأخير في سلام ومن غير أن يبدو للناظر أثر للصراع . وبأى شيء يكون الصراع ؟ ؟

وميتة أخرى شهدتها ، كان الصراع فيها كأعنف ما يمكن أن يكون ، لأن الجسم بوغت بمدوان المرض المنذر ، فتنبه فيه كل كامن من قوته ، وهبت إرادة الحياة تدفع هذه الغائلة ، وكان يخجل إلى وأنا أنظر ، كأن انساناً أتق به في الماء وهو لا يعرف من السباحة إلا لفظها ، وكما يفعل المرء حين يلقى نفسه في الماء ويختشى عليها الفرق ، فترأ يضرب بيديه ورجليه بغير حساب أو تفكير ويهز رأسه هزاً عنيفاً ، وينفخ ويرغى ، كذلك كنت أرى أمي لما أصابتها الذبحة ؛ وسكنت الآلام بفضل العلاج يومين ، وبدأنا نستبشر ، ولكن النكسة جاءت ، أو لأدرى ماذا حدث ، فجملت نوبات من الاختناق تمترتها ، وبينها في أول الأمر فترات طويلة جعلت تقصر شيئاً فشيئاً حتى صارت دقائق . وكانت أول الأمر تقاوم الاختناق بشدة ، وتعالج التنفس بمجهود عنيف ، يظهر أثره في كل عضلة من عضلات الوجه والعنق ، وفي اضطراب الصدر وخفق القلب ، وفي دفع اليدين والرجلين ؛ وكان هي أن أقوى إرادة الحياة في نفسها وأن أمدها بما يكفي من الأمل والثقة والشجاعة ، ولكن كرات الاختناق أوهت قوتها واستنفدت مجهودها ، ولم يفارقها الحرص على الحياة ، والنفور من الموت ، وإنما خذلها قواها ؛ ولم يذهب عقلها ولا ضعف أو كل ، ولكن ما خير العقل وما غناؤه وجسده ؟ ؟

وبأى شيء يشتد أزره ؟ فلما جاءت آخر الثوبات كان كل ماوسع الجسم أن يكافح به هذه الغارة أن الشفة السفلى اختلجت مرة أو مرتين ، فهدم الجسم وكف القلب عن النبضان وانقطعت الأنفاس

وقد سقت هذه الأمثلة لأقول إن الانسان لا يستسلم ولا يزهى في الحياة ، ولا تفتر رغبته فيها ، ولا يضعف كرهه للموت واستهواله للفناء ، ولكنه لا يجد مؤازراً من جسمه فيياس ؛ وليس هذا استسلاماً وإعاهو إدراك الحقيقة بضيعة لا يبقى مفر من مواجهتها وتوطين النفس عليها ، والاذعان لها كرها وخليق بهذا أن يكون مؤلماً ، ولكن قفرته أقصر من أن يكون الألم فيها قيمة أو حساب ، وعلى أن يحجز الجسم عن المقاومة ، يذهب في رأيي بالألم ، لأن الألم فيما أعرف نوع من الاستجابة لوقع الشيء أو الحالة ، ومتى فقد الجسم القدرة على الاستجابة للتؤثرات فانه يفقد أيضاً قدرته على الاحساس بالألم أو الحزن أو الجزع أو الفزع ، لأن شعوره بذلك يقتضى أن تكون هناك بقية من الحيوية ، ولو كانت هناك بقية ، لاستمرت المقاومة ولظلت رحي الكفاح بين الحياة والموت دائرة

فلست أوافق الذين يستهلون أن يكون الرء مدركا لمجىء الأجل ، لأن إدراك الرء لذلك ، معناه أنه يدرك أن جهده نفذ ، وأن معين حيويته نصب وجف ، وهذا الإدراك وحده وبجورده ، رياضة سريعة للنفس على السكون الى المصير المحتوم ، لأنه إشاعة للموت في الجسم قبل تجرية وقمه ، فكان الانسان يوحى إلى نفسه الموت — بفضل هذا الإدراك وبقوته — قبل أن ينزل به ، فاذا زاره الفناء مستعدا له ، مهياً لتلقيه ؛ والإدراك تهيباً ، والتهيب ينفى الألم ويستل اللذع

ومن هنا كانت الشيخوخة — أى الضعف — والرض الطويل أو الضنى ، بمثابة التدريب على الموت . وكل امرىء يقرب الشيخوخة أو المرض بالموت ، ولا يستغربه حين يحل بالهرم أو الذى خاصره الداء ، ولكن موت الشاب يصدم النفس ويرجها ، لأن الشباب — وهو أوان الحيوية الزاخرة — لا يقترن في الأذهان بفكرة الموت . أما الشيخ الهيم فإن كل من يراه يجرى بخاطره أنه هامة يوم قريب ، وأخلق أن يكون الموت أقرب الى خاطره وأجرى بياله ، وأشد مثولا وأكثر حضوراً ، لأنه أحسن بنفسه وأدق ادراكا لما خسر من قوته ، وعلما بما صار اليه من

الوهن والفتور بالقياس الى ما كان عليه من الأنة والنشاط والروية . ويألف المرء الضعف واليبس فيألف المصير الذى يرف نفسه يتحدر اليه بسرعة أو على مهل ، فيكون هذا كالرياضة على السكون الى المآل المحتوم ، وهذا هو معنى قول الشيخوخة أو المرض تدريب على الموت

وهذه الرياضة النفسية — أو التدريب الذاتى — على الموت أذ وأوقع من كل ما يشاهده الانسان من عدوان الفناء على الخ في مظاهرها المختلفة . وأحسب أن المرء حين يرفى غيره يموت أو يسمع بذلك ، يستثنى نفسه من هذا المصير وإن كان على يد جازم من أنه حتم لا راد له ولا حيلة فيه ؛ ولعله في ضمير الفز بهىء نفسه بالنجاة ويشكر الله على أن الموت لم يحطفه هو وعسى أن يكون الأمل المستمد من غريزة المحافظة على الذات الذى يفره بالتملق بوم الاستثناء المستحيل ، وهو على كل — يخفف وقع الخبر ، ويجعله محتملا ، ويذهب ببواعث الجزع النفس قياساً على المشهود

ولكن قدرة المرء على مغالطة نفسه تضيف أمام ديب الموت اليه على الأيام . ذلك شيء يحسه في نفسه فلا سبيل له تجاهله والاعضاء عنه . وكيف يسهه أن يتجاهل اليبس الذى أعضائه ، والتصلب الذى في شرايينه ، والفتور الذى يجده والضعف الذى يمتريه حين يهيم بأيسر الأشياء ، والبجزء احتمال ما كان يمر به فلا يميزه لفنة ، الى آخر ذلك ؟ وكل يوحى به يزيد وهنا على وهن ، ويدنيه من القرار الذى يبار نفسه هابطا اليه ، فلا يبقى سبيل الى مغالطة النفس . وكل يقدر عليه أمله هو أن يرجو أن ينسى الله في أجله ، على الرذ مما يكابد من ذلة الشيخوخة ومهانة الضعف والحاجة المتفاقمة الى الاستناد . فهو مضطر أن يوطن نفسه على الموت ، وأن يقصد الأمل على طول المهلة ، وليس أجدى عليه ولا أفضل في تخفيف وطأة الموت من هذه الرياضة البطيئة . ومن هنا كان موت الفجاءة منزعجا لنفوس الأحياء ، لأن صدمته لها تجمىء على غير انتظار . والله أعلم ، فما جرب الموت أحد وعاد البنا ليقول لا كيف كان وقمه — هذا طريق لا يحمل المسافر فيه « تذكرة ذهاب وإياب ، كما يقول ويندل هواز

ابراهيم عبد القادر المازنى